

بسم الله الرحمن الرحيم

مَهْيَدٌ

الحمد لله الحكيم الكريم، العلي العظيم، السميع العليم، الرؤوف الرحيم، الذي أسبغ على عباده النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، كما هو أشد فرحا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وأرحم الراحمين، الذي تعرّف إلى خلقه بصفاته وأسمائه، وتحبب إليهم بإحسانه وآلائه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي ختم به النبيين وأرسله رحمة للعالمين، وبعثه بالحنيفية السمحة، والدين المهيمن على كل دين، فوضع به الآصار والأغلال، وأغنى بشريعته عن طرق المكر والاحتيال، وفتح لمن اعتصم بها طريقا واضحا ومنهجاً، وجعل لمن تمسك بها من كل ما ضاق عليه فرجا ومخرجاً، فعند رسول الله ﷺ السعة والرحمة، وعند غيره الشدة والنقمة.

فالرحمة نعمة من نعم الله تعالى لأهل الأرض، وهي جزء من مائة رحمة نزلت عليهم يتراحمون بها فيما بينهم، كما أنها صفة يتصف بها الإنسان وخلق من أخلاقه، بل إن طبع الرحمة متأصل في الحيوان ذاته، وبالرغم من أنها مزروعة في طبع بني آدم، إلا أنها قد تنعدم وتترع من قلوبهم تارة أخرى، إذا لم يحافظوا عليها، ولم يحيطوها بسياج الرحمن، ولم يسعوا لتثبيتها وتأصيلها، وفق تعاليم الإسلام.

ولذا جاء الإسلام ليقرر هذا المبدأ عبر توجيهات القرآن، فاخبرنا بأن الرحمة صفة من صفات الله تعالى، واسم من أسمائه الحسنى، بل نلاحظ أن كل سورة تبدأ بالبسملة، التي تحوي اسم الله الرحمن الرحيم، يُعلن أن كل سورة تحمل في طياتها الرحمة، وأن هذا القرآن رحمة للعالمين، فما أكرم هذا الإنسان وما يناله من شرف، إذا أخذ بهذه الصفة، واتصف بها، وجعلها خلقاً من أخلاقه، ومسلكاً في حياته، لينال رحمة الله تعالى، فإذا كان خالقه عز وجل جعلها اسماً من أسمائه الحسنى، وصفة من صفاته فمن باب أولى أن يتصف بها،

فالأرحمون يرحمهم الرحمن، جاء في الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ⁽¹⁾) مِنْ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ⁽²⁾.

إن حصول الرحمة يتأتى باجتماع لين الفؤاد إلى رقة القلب، ويجب تهيئة الجو المناسب للرحمة، فالرحمة لا تترع إلا من شقي، والشقي كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ قِيلَ وَمَنْ الشَّقِيُّ قَالَ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِطَاعَةِ وَلَا يَتْرُكُ لِلَّهِ مَعْصِيَةً)⁽³⁾، فالذي يبتعد عن الهدى إلى الضلال والتهيه، أو ينعفس في الكبائر والموبقات أو الكذب أو الظلم أو الرشوة، يكون ممن حرم الرحمة، فالكبائر من موجبات اللعنة، قال في الوجيز: موجبات اللعنة: الطرد من الرحمة⁽⁴⁾، وقال ابن عباس⁽⁵⁾: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب⁽⁶⁾، ومن موجبات الطرد من الرحمة الكذب، قال تعالى: (وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)⁽⁷⁾، وعن الظلم والافتراء قال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)⁽⁸⁾، وعن الرشوة عَنْ ثَوْبَانَ⁽⁹⁾ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ وَالرَّائِشَ يَعْنِي الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا⁽¹⁰⁾.

وإذا كانت الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته، فيجب على المرء تحصيل مبتغاه، وسلوك طريقه الصحيح له، وتأمل دعاء الرسول ﷺ حين يدعو ورجاءه رحمة ربه، قال ﷺ: (دعوات المكروب: اللَّهُمَّ رَحِمَتِكَ أَرْجُو فَلَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي

1 - شجنة: عروق الشجر المشتبكة.

2 - سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، برقم 1847، وقال: حديث صحيح حسن، المكتبة الإسلامية، 1983م.

3 - مسند الإمام أحمد، أحمد، باقي مسند المكثرين، برقم: 8239.

4 - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد أبو الحسن الواحدي، (ت: 468هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار - بيروت، ط1، 1415هـ/1995م.

5 - سنن أبي داود، ترمذي.

6 - التسهيل لعلوم التنزيل - محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الغرناطي الكلبي، أبو عبد الله المدعو بالقاسم، (ت: 741هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط4، 1403هـ/1983م.

7 - النور (7).

8 - هود (18).

9 - ثوبان: هو ثوبان بن جدد الهاشمي، أبو عبد الله صحابي جليل، يروي عن النبي ص، من تلاميذه أبو زرعة، وأبو كبشة، وجبير بن نفير بن مالك، ورشد بن سعد، أقام بالشام، وتوفي بخلوان سنة 54هجرية.

10 - مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، باقي مسند الأنصار، برقم: 21365.

شأن كفه لا إله إلا أنت⁽¹⁾، فحتى ينال المؤمن رحمة الله، يسأل ربه أن لا يكله إلى نفسه، ولو طرفة عين، ليصلح له شأنه كله، فرجاء أو تمنى الرحمة، يقتضي السعي لها، وتمهيد السبيل لها، وهيئة سبل نيلها.

قال ابن القيم: فالرحمة تقتضي الحزم لا الإهمال، ومما ينبغي أن يعلم، أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كررتها نفسه وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود عليه بالضرر، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقله رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفقه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل.

فالابتلاء من الله لعباده رحمة بهم، وذلك من تمام رحمته بهم، قال ابن القيم في ذلك: ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته يعتبر من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه، وقد جاء في الأثر: (إن المبتلى إذا دعي له: اللهم ارحمه يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به رحمته؟ وفي أثر آخر: (إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه)، فهذا من تمام رحمته به لا من بخله عليه، كيف وهو الجواد المجد الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده، أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها.

وقال أيضا: فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي، رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته أن نعص عليهم الدنيا وكدرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان،

1 - صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، رواه أبو داود 324/4، وأحمد 42/5، وحسنه الألباني، مكتبة التربية العربية لدول الخليج، 1409هـ / 1989م.

فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيههم، وأماهم ليحييهم، ومن رحمته بهم أن حذرهم نفسه لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالى:

﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾⁽¹⁾، قال غير واحد من السلف: (من رأفته بالعباد أن حذرهم من نفسه لئلا يغتروا به).

ولما كان تمام النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة، أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين، وطريق الضالين وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء وأفضله وأوجبه وبالله التوفيق⁽²⁾.

ولهذا فالرحمة لها معنى شامل، وليست ذلك المفهوم الضيق عند بعض الناس، فالإبتلاء رحمة من الله بعبده، وحرمان العبد من شهواته رحمة به، والأوامر والنواهي رحمة من الله تعالى بعباده، وذلك كله لينتقي العبد المخلص لله تعالى، الذي يستحق دخول دار رحمته ومستقرها في الآخرة، رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين، وصلي اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1 - آل عمران من الآية 30.

2 - إغاثة اللهفان، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المعروف بابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، 174/2، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1395هـ / 1975م.